طرق الرقيق عبر الصحراء الكبرى

ملخص من مقال لجستن ماروتزي
ترجمة محمد بشين

«كانت التجارة بالرقيق سائدة في أنحاء العالم كله، كجُزء مظلم من تاريخ البشر ، من افريقيا كان يُحمل العبيد في مسير مميت نحو الشمال، و كان لأوروبا وأمريكا نصيب الأسد من العبيد ولم تتخلف بقية الشعوب عن هذه الحرفة والتجارة، ملايين الأفارقة الفقراء أجبروا على السير عبر الصحراء الكبرى، أو الإبحار عبر الأطلسي ليقضوا حياتهم في ذل العبودية، هذا ملخص لمقالة جاستن ماروتزي في تعقُّب طرق قوافل تجارة العبيد في الصحراء الليبية».



بالرغم أن المؤرخين قد مالوا إلى التركيز على التجارة الأطلنطية للرقيق في أفريقيا، إلا أن الأعداد التي اتجهت شمالاً عبر الصحراء هائلة، جستن ماروتزي يسافر عبر الصحراء الليبية بحثا عن هذا الإرث من التجارة.

عندما بدأ الانجليزي جيمس ريتشاردسون رحلته عبر الصحراء الليبية سنة 1845 لم تكن طموحاته مماثلة للمُكتشف الصحراوي الاعتيادي، كانت مهمته حسب ما كتب هي إثارة الاشمئزاز تجاه التجارة بالرقيق في قلوب أبناء وطنه، وكتب: (كنت دائما أرى أن المتاجرة بلحوم و دماء البشر) أكبر نظام من الشر قد رآه العالم).

منذ سنوات مضت، وصلتُ إلى ليبيا للبحث عن حصون تجارة الرقيق المنسيّة، انطلاقا من تواجدها منذ قرون كأحد أكبر مراكز التجارة بالرقيق.

قررت أنا و رفيق رحلتي التوجه جنوب غرب البلاد نحو غدامس، كنا قد اشترينا الجِمال من هناك للتوجه نحو الجنوب الشرقي في قافلتنا الخاصة إلى المحطة المنعزلة «جرمة»، و من ثَمّ إلى الواحة الوسطى مرزق، وهي سوق آخر للرّقيق معروف سابقا ببلد الحمى بسبب مناخها المُميت.

من مرزق، انتقلنا شرقا إلى تمسه، آخر منطقة مأهولة من أي حجم في مسافة تمتد لمئات من الكيلومترات، عندما دخلنا بعضَ أكثر المناطق كآبة في الصحراء الكبرى، أصبحت الرحلة حينها أكثر صعوبةً لنا و للجمال، و انتهت الرحلة بعد 2400 كيلومتر في الكفرة، أحد آخر أسواق الرقيق في ليبيا سابقا.

بمعرفتنا للتدمير التدريجي للمباني التاريخية في عهد القذافي، اعتقدت أننا سنجد القليل فقط من الأدلة عن تجارة الرقيق، و لكنني علمت بعدها أنه لم يتبقى شيئ تقريبا، بدلا عن ذلك اعتمدت على الأرشيف المميز لمستكشفي القرن التاسع عشر أمثال ريتشاردسون.

ريتشاردسون ناشط وطني و شغوف ضد التجارة بالرقيق، اختار أن يقوم بتحقيقاته في الصحراء الكبرى، عوضا عن غرب أفريقيا، شاهِد على أهمية التجارة نحو أوروبا شمالا بالرجال و النساء و الأطفال الأفريقيين، رغم أن المؤرخين قد مالوا إلى التركيز على التجارة الأطلنطية للرقيق، التي تمثل نصيب الأسد من الأفريقيين المجبورين على العبودية، ومع ذلك كان حجم نظيرها في الصحراء الكبرى هائلا، قدِّرت أعداد الرقيق التي تم نقلها عبر الصحراء بين عامي 650 و 1900، حوالي 10 إلى 14 مليون، خلال أواسط القرن التاسع عشر، شكّل الرقيق نصف العدد لكل المسافرين نحو الشمال عبر الصحراء الكبرى، كنتيجة للظروف الشنيعة التي عانوها من المسير الإجباري لمسافة 2600 إلى 2900 كيلومتر، الذي تضمن الاغتصاب و الضرب و الأمراض التي لم يتم علاجها والتجويع و الجفاف، حيثُ كانت نسبة الوفيات تصل إلى 20 في المئة.

كان جزء من الدافع آنذاك إيجاد نهاية لهكذا قسوة، و جزء آخر لاكتشاف فرص تجارية للتجار البريطانيين، دفع ذلك رجالا من أمثال ريتشاردسون للمغامرة داخل القارة السمراء.

بعد عقد من تشريع حظر التجارة بالرقيق في ويستمينستر، وصلت حملة عام 1818-1820 البريطانية لشمال افريقيا بقيادة جوزيف ريتشي وهو (رجل ذو علم و قدرات كبيرة) وصلت الى طرابلس، و بسبب نقص التمويل و سوء التجهيزات، مات ريتشي بطريقة مؤلمة، حيثُ أصابته الحمّى الصّفراوية في مدينة مرزق، تاركا مرافقه الملازم جورج فرانسيس ليون ليروي القصة و يعود إلى لندن بأوصاف



قدِّرت أعداد الرقيق التي تم نقلها عبر الصحراء بين عامي 650 و 1900، حوالي 10 إلى 14 مليون ...

مروعة عن ما يجري من تجارة الرقيق، في أحد الأيام، واجه قافلة تحمل 1400 من الرقيق قادمة من جنوب الصحراء إلى مرزق، «كان هؤلاء المساكين المظلومين و أغلبهم متعبين جدا كما كانوا بالكاد يستطيعون المشي»، وكتب «كانت سيقانهم و أقدامهم متورمة للغاية، و بأحجامها الكبيرة، كان شكلهم ملفتا للانتباه بسبب أجسادهم الهزيلة، وحتى الأطفال المساكين، و الذين أصبحوا كالهياكل العظمية بسبب التعب و المصاعب، مجبرين على تحمل العبء، في الوقت الذي ركب فيه كثير من أسيادهم غير الإنسانيين الجمال، بالسوط اللعين المعلق بأيديهم، و الذي كان يُستخدم للضرب من حين لآخر لإجبار الأسرى البائسين على الطاعة لهم».

مثل هذه التقارير أثارت الغضب والاشمئزاز، وأصبحت الحكومات البريطانية المتعاقبة تحت ضغط متزايد من أجل الأخذ بإجراءات صارمة لوقف التجارة بالرقيق، حملة ريتشاردسون الأولى في الصحراء الكبرى كانت برعاية مكاتب جمعية مكافحة العبودية الأجنبية، التي افتتحت في 1839 كانت الحملة ناجحة في لفت الانتباه تجاه التجارة ليقوم اللورد بالمرستون - وزير الخارجية - بتفويض ريتشاردسون للقيام بحملته الثانية، كانت هذه حملة أفريقيا الوسطى 1849-1855، التي عادت بمعلومات جغرافية و ديموغرافية قيمة و لكنها أودت بحياة ستة من أصل ثمانية أوروبيين، أحدهم كان ريتشاردسون، كان هدفها الصريح - في كلام بالمرستون- دراسة الفرص التجارية في الإقليم (برؤية لاستبدال التجارة بالرقيق في دواخل أفريقيا بتجارة شرعية و قانونية).

بالنسبة لفيكتوري إمبريالي مثل ريتشاردسون، كانت من مهام إنجلترا أن تنهي هذه التجارة المؤذية، «هل يوجد رجل في وعيه، ممن يؤمن بالرب و تدبيره، يعتقد بأن الأخطاء في أفريقيا ستذهب للأبد من دون انتقام؟» الفشل في التصرف بشكل حاسم ضد الاستعباد سيكون له عواقب كبيرة، «سيأتي وقتنا نحن الانجليز في المرة التالية ، يومنا من العار!، إلا لو أرينا أنفسنا أننا جديرين بمقامنا الرفيع الذي وضعتنا فيه العناية الإلهية، في قمة إمبراطوريات الأرض، كقادة و أبطال الحرية العالمية»، هكذا تحدث ريتشاردسون بجرأة.

حماسة ريتشاردسون وضعته في سلسلة من المشاكل خلال رحلته، ليس أقلها مع العقيد الرهيب هامر وارينغتون، القنصل البريطاني الذي عمل لفترة طويلة في طرابلس، وصولا إلى وفاته في 1851 مستسلما للْحمى، غرب بحيرة تشاد، سجل أنه أمام عينيه قد رأى فتاة في الحادية عشر من عمرها قد تم جلدها حتى الموت من قِبل أحد بائعي الرقيق الذي يفترض به أن يكون إنساناً،

كان الاغتصاب ببساطة جزء من العمل للعديد من تُجّار الرّقيق، و لبعضهم كان السبب الرئيسي لمشاركتهم في التجارة، « ليس من الممكن أن تأتي فتاة عبر الصحراء في عمر السادسة أو السابعة دون أن يتم اغتصابها».

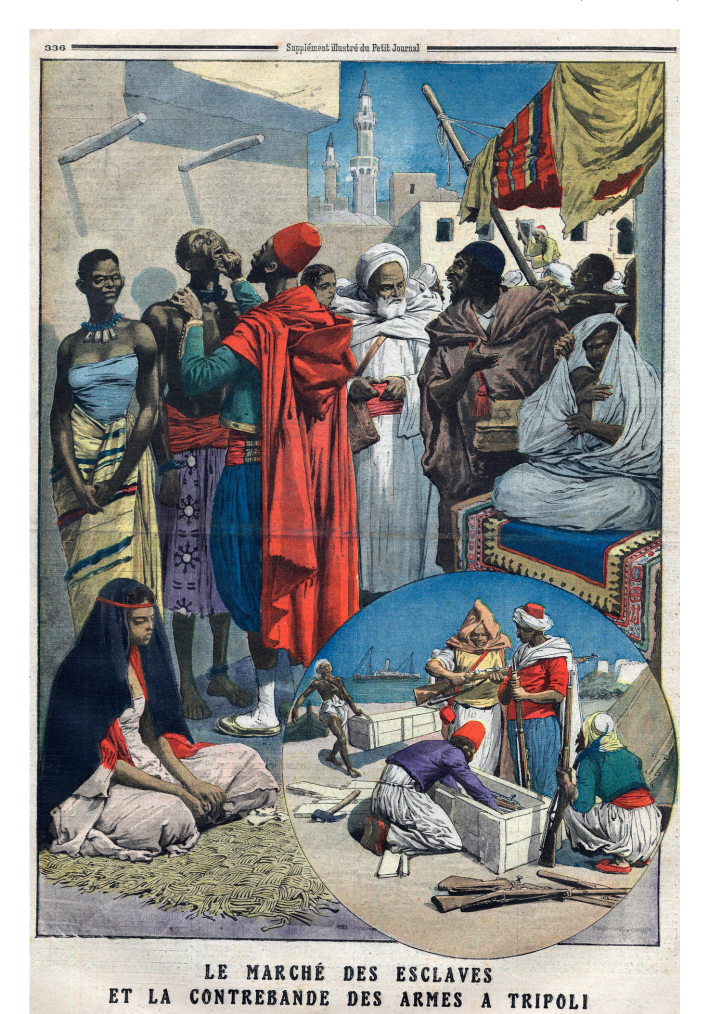
صعّدت بريطانيا تدخلها في أفريقيا خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر و النصف الأول من القرن العشرين، بإنشاء العديد من القنصليات، كان من مهام بعضها مراقبة الحظر على تجارة الرقيق، مراسل دبلوماسي يكشف عن العشوائية الشاقة التي واجهها المسؤولون في 1843، على سبيل المثال، نائب القنصل في مرزق سجل مرور 2200 من الرقيق عبر البلدة، «معدل الوفيات من هؤلاء الذين أتوا كان كبيرا، بسبب سوء العناية الطبية و الحاجة للطعام»، رسائل القنصليات حمَلت ملاحظات متكررة عن السلطات التركية منها «لا مبالاتهم و عدم اكتراثهم بشكل مطلق» للتجارة بالرقيق، و إهمالهم الملحوظ و مخالفاتهم المفضوحة للأوامر القادمة من القسطنطينية.

قامت الإمبراطورية العثمانية بحظر التجارة بالرقيق سنة 1856، و لكن هذا القرار كان للاستهلاك العالمي أكثر من الاستهلاك المحلي الداخلي، المسؤولون المحليون ذوو الأجور القليلة في المناطق الصحراوية مثل غدامس، مرزق و الكفرة تحصلوا على أرباح كبيرة من التجارة بالرقيق على هيئة رشاو و ضرائب، لذلك لم يكن من مصالحهم أن يقوموا بفرض الحظر.

عندما وصل المستكشف الألماني غوستاف ناختيغال إلى مرزق سنة 1869، بعد 62 سنة من حظر التجارة بالرقيق من قبل بريطانيا و الولايات المتحدة الأمريكية، كانت لازالت الأدلة موجودة، حتى و لو تمت بتَروّ و بطء، حيث كتب «لا يستطيع أي تاجر بالتأكيد أن يدخل البلدات بالمئات من الرقيق و لكن كان بامكان التجار الثانويين استيعابهم بسهولة في مزارع المدن، سواء كان في مرزق أو طرابلس، و أيضا في القرى المجاورة، و أن يتم تنظيمهم بشكل سري»، زودنا ناختيغال بمثال موضح عن الفجوة بين السياسة الرسمية و الممارسة.

عندما كان يقيم في مرزق، ظهر مرسوم جديد و متشدد ضد التجارة بالرقيق، لكن، بما إن قافلة رقيق كانت قادمة في أي لحظة، انتظرها المسؤولون حتى وصولها و دفعوا ضرائبها قبل إشهار المرسوم رسميا، مكتشفون طموحون أتوا و رحلوا، و لكن التجارة بالرقيق استمرت ، كان وقتا طويلا قبل أن يتمكن الإفريقيون من أن ينضموا للشاعر جيمس مونتغومري في الاحتفال بزوال هذه التجارة، آخر شحنة مسجلة من الرقيق الذين مروا خلال الواحة الليبية الوسطى مرزق وصلت في سنة 1929، مجيء التقنيات الجديدة على هيئة سفن حديثة ساهمت في توديع التجارة الصحراوية للرقيق و جعلها من الماضي بشكل نهائي و حاسم، مِمّا لم يُمكّن للقوافل فرصةً للمنافسة، فَفي القرن العشرين كان نقل واحد طن من البضائع تكلف 3 جنيه استرليني لنقلها من ليفربول إلى كانو -المعروفة حاليا بنيجيريا- و يكلف أكثر من ضعف ذلك لإرسال نفس الكمية من البضائع عن طريق الجمال من طرابلس إلى كانو،اليوم، الصحراء الليبية توفر القليل من الأدلة لهذا الفصل البائس من التاريخ البشري ، فَفِي مرزق، تم هدم المدينة القديمة بالكامل في أحد مخططات القذافي للنقل الإجباري، ولا يوجد أي أثر لقبر ريتشي، و لا حتى لسوق الرقيق القديم الذي أدهش مستكشفي القرن التاسع عشر، الكفرة أيضا لا تملك إلا القليل لترويه لزوارها.

ليبيا في عهد القذافي، الحداثة معروضة غالباً كبديل، لا كتكملة للتاريخ الغني للبلاد، فقط في غدامس تم الحفاظ على المدينة القديمة، وهي موجودة كمتحف غير مأهول بعد انتقال إلزامي آخر لسكانها إلى مساكن جديدة.



لوحة من جريدة لوبيتيت جورنال الصادرة في باريس تجسد تجارة الرقيق في طرابلس